

والأبداعية منها على وجه الخصوص ، كما يستعمل في الدراما المنظومة

٢- الشعر المرسل والشعر الحر

الأستاذ دريني خشبة

وظيفة الشعر المرسل والشعر الفنائى — الشعر العربى فنائى كله — الأقصوصة القصيرة للمنظومة أو ال Ballad محاولة التخلص من القافية العربية — تحكيم القافية العربية في تفكير شعرائنا — القافية المطردة هي التي حرمتنا من الملاحم والقصص المنظومة — ماذا جدد الأندلسيون — هل مضى زمن الملحمة والدراما المنظومة .

يجب أن نعرف وظيفة الشعر المرسل قبل أن نقرأه ، ويجب أن نعرف أن هذا الضرب من الشعر الذي لا قافية له ، لا يمكن أن يستعمل فيما يستعمل فيه الشعر الفنائى الذي لا يمكن أن يستغنى عن القافية ، لأن القافية هي نصف موسيقاه

والشعر المرسل الذي ابتكره الإيطاليون واقتبسه عنهم شعراء الدول الأوروبية ، وفي مقدمتهم الشعراء الإنجليز ، إنما يستعمل في نظم الملاحم الطوال ، والقصص الشعرية ،

حين أنست القاهرة زيارة الوفد السوري ، الوفد الذي تقبلته مصر بأحسن القبول ، تذكرت أن الأستاذ محمد خالد حدثني أن جماعة من أدباء سورية ضاقت صدورهم بأدبي ، فاعتزموا إرسال وفد يقع بحلة الرسالة بوجوب التخفف من مقالاتي

فتى يجيء الوفد السوري الجديد ؟ متى يجيء فتستريح « الرسالة » وأستريح ؟

الحق أني لم أفكر يوماً في ملاطفة قرأني ، وهل ألاطف نفسي حتى ألاطف قرأني ؟

أنا أمشي على الشوك في كل سطر أو في كل حرف ، وما يعجبكم أو يعضبكم لا يخطه القلم إلا بعد أن يمتلج في الصدر أياماً وليالي وأسابيع

وما حاجتكم إلى كاتب لطيف لا يكتب في غير ما تحبون ؟ ألم تروا كيف تقررنا الحياة على الاعتصام بالرموز والتلاميذ ؟ إن اللبى يعضبكم متى هو السر فيما بيني وبينكم من جاذبية يعجز عن إخادها الزمان

نكي مبارك

أما الشعر الفنائى ، فيستعمل في القصائد والمقطوعات والموسحات ، وذلك لأنها أحوج إلى الجمال الشكلى ، والشكل الموسيقى من الملحمة ومن الدراما ومن القصة الأبداعية Romance ، وذلك لأنها أيضاً ، أو لأن القصيدة أو المقطوعة أو الموشحة منها ، عبارة عن خلجات سائبة ، يجمع الشاعر أشاتمها لثم له منها وحدة القصيدة آخر الأمر . فالشاعر الذي يتأجج ليلاه ، أو يشكو بلواه ، أو يبرح به الوجد في خلوته ، أو يقدس لله في وحدته ، أو يرى للانسانية الدامية ، ويرى الشمس تبرز فتفتنى لها روحه ، ويهتف بجها لها لسانه ... ويرى الزهرة تفتقر عن ثمرها الأخواني فيذكر ثمر معذبه ، فيجلس منهية ليقول بيتاً أو بيتين ، وينظم مقطوعة أو مقطوعتين ، وكأنما يذرف عبرة أو عبرتين ... هذا الشاعر العابر لا بد له أن يتأنى ... إنه في حاجة ماسة إلى الفن الكامل . إنه لا يستطيع أن يتخلى عن وتر واحد من أوتار قيثارة الخسة ، إنه بحاجة شديدة إلى فتحات نايه الست ... إنه لن يقدر عن الاستغناء عن مفتاح واحد من مفاتيحه السبعة ... إنه ينبغي أن يقف عند آخر كل بيت ، لأن كل بيت إنما يحمل معنى مستقلاً بموسيقاه وإن لم يستقل كل الاستقلال بمعناه ... إن شعره هو غناء قلبه وترجان عواطفه ، وألحان روحه ، وهو إذا رنى أو مدح أو وعظ أو وصف ، فهو يتفنن بفنائه المرنى وأفضال المدوح ، ويُحبب في الخير ويُنفض في الشر ، ويردد أسداء الحديقة أو القصر ، أو الجبل أو البحر ، في نفسه

وكل الشعر العربى شعر فنائى لأن الشعراء العرب لم ينظموا ملحمة ولا قصة ولا دراما . والشعر القصصى الموجود عندنا هو نوع من أنواع ال Ballad أو القصة القصيرة الفنائية المنظومة ، ونحوها بعض قصائد امرئ القيس والنابغة (في المتجرده مثلاً) والفرزدق (في الذئب وبعض القيان) وقصائد عمر بن ربيعة في غوانيه ، وبعض وقائع أبي نواس في غيده وغلمانه ، وما تفيض به بريمة الدهر من خكايات الفضوليين والمختئين ومن إليهم . ويلحق بهذا الضرب من

ضروب القصص بعض المداخل النبوية التي تعرضت بالشرح إلى معجزات النبي ، وللملها هي التي أوحى في العصر الحديث إلى حافظ وعبد الحليم المصري ومحمود المانسترلي بمنظوماتهم في عمر وأبي بكر وعثمان

ولسنا نعرف في تاريخ الأدب العربي أن أحداً من الشعراء العرب حاول التخلص من القافية أو حاول كتابة الشعر المرسل ، على أننا نعتبر الرجز والموشحات والنظم من قافية الألف اللينة محاولة قديمة للتحرر على نطاق ضيق من أسر القوافي ، وأقول أسر القوافي ، وأنا أعني ما أقول وأقصده لأن هذه القوافي العربية الصارمة هي السبب المباشر في قصر قصائدنا وقصور شعرائنا على السواء ، وهي السبب المباشر أيضاً في حرمان الشعر العربي من الملحمة الطويلة ومن القصة المنظومة ومن الدراما المنظومة ومن الروائع القصصية بجميع أنواعها ... لقد آكن أن نعترف بأن لحول الشعراء العرب كانوا يضطرون ، تحت أسر هذه القوافي ، إلى استعمال ألفاظ حوشية مهجورة مفرجة ما دامت داخلة في باب القافية التي ينظمون منها . ومن المؤلم أن نقرر أن هذه الألفاظ الحوشية المهجورة المفرجة كانت تتعاون مع الألفاظ السهلة المستعملة المتداولة في التحكم أحياناً في سير القصيدة وفي رسم الطريق للمعاني ... وأنا موقن أن الشاعر المطبوع والشاعر غير المطبوع مستويان في الخضوع لأسر القافية وتحكمها في جميع ما يريد كل منهما أن يقول ، حتى في المقطوعات القصيرة ، وحتى في الموشحات التي تتنوع القوافي في مقطوعاتها وأذكر بهذه المناسبة ما يلاحظه بعض نقاد الآداب الأجانب على الشعر العربي من البطء الشديد في أداء المعاني التي تضطرب بها نفس الشاعر . ولا جدال في أن القافية وحدها هي سبب هذا البطء لتحكمها في تفكير الشاعر تحكماً سخيلاً مضيقاً ينتهي إلى إجهاد قريحته ونجشيمها ما لا تطبيق ، وتكون النتيجة المحتومة التي لا مفر منها واحدة من اثنتين : فإما أن تعطينا هذه القريحة المجهدة المتعبة شعراً مجهوداً متعباً ، وإما أن يؤدي هذا الإجهاد إلى موت القريحة نفسها وانصرافها عن هذا الشعر المضني السخيف الذي لا خير فيه إلا تلك الموسيقى الكاملة وإلا الطنين والرنين

لذلك نرجح أن نظم الرجز والموشحات والنظم من قافية الألف اللينة كان محاولة للتخلص من ربة القافية المتشاكلة المملة التي تتحكم في معظم الأحوال في كل ما يريد أن يقوله الشاعر وفي كل ما يفكر فيه ، وفي كل ما يزخر به خاطره من خواجج ، تلك القافية التي لا شبيه لها إلا في الشعر العربي ولذلك أيضاً نجزم بأن القافية المتشاكلة المملة هذه ، كانت السبب في حرمان الأدب العربي أو الشعر العربي على وجه التحديد من الملحمة والقصة الطويلة المنظومة ، ثم من الدراما ، وذلك لأن أثرها في توجيه تفكير الشاعر يكون أفسى في المنظومات الطويلة التي تحتاج إلى المرونة والتدفق ورقة التسلسل وعدم الإرهاق بالإطراد السمج الذي يقتضي حشد خمائة أو تسعمائة أو ألف لفظة متفقة الوزن وموحدة الحرف الأخير لمنظومة تتألف من مثل هذا العدد من الآيات

لقد تعاطم هذا الحظر الشعراء الأندلسيين ، كما تعاطمهم كذلك أن تغفل ثقافتهم الشعرية ذليلة لعروض الشعر المشرق ؛ وتعاطمهم أيضاً أن يسموا إلى هذه المنظومات الرقيقة المشرقة التي يهتف بها شعراء الأسبان في غرناطة وقشتالة وطليلة وغيرها من أمهات المدن الإسبانية ، وأن يظنوا هم عاكفين على قوافي المهمل والسليك والطرمخ ومن إليهم من شعراء الجزيرة العربية منذ جاهليتها الأولى ، فداروا مع الزمان الذي استدار ، وقلدوا الأفاريد الجديدة التي سموا ، فأمدوا الشعر العربي بتلك الموشحات الرائعة التي كانت خطوة بارعة في سبيل التخلص من القافية المطردة التي مازال شعراؤنا أو معظمهم ينتصرون لها ولا يرون التخلص من أمفادها مع الأسف الشديد

قرأت في أحد كتب المستشرقين أن أدباءنا القدامى ، أي أدباء العرب ، الذين لم يستطيعوا أن يقرضوا الشعر اكتفوا بأن يسجروا النثر ، وعلل الكاتب هذه الظاهرة بتحكم سلطان القافية في الشعر العربي ، واستهواها لنفوس العرب والأمم المستعربة على السواء ، وعلل بهذا ظهور السجع في كلام العرب القديم . فإلى متى يا ترى يظل شعراؤنا عبيداً لهذه القوافي المطردة التي لم تتغير منذ عهد عاد !

وكيف يتفوق الأندلسيون على المصريين والشاميين والعراقيين

وعرب المغرب وشعرائنا في المهاجر من حيث الاستجابة لصوت الجديد الفرد الذي كان يغنى من حولهم فغنوا كما غنى وأنشدوا كما أنشد وشعروا كما شعر ، ثم بزوه بموسيقا المروض العربي ذي الثروة الطائلة من الأنغام والموازين فتأثر هو الآخر بهم كما تأثروا به ، وأذاع بتلك الموازين في العالم اللاتيني كله ، وتأثر الشعر الغنائي هناك بما يطول ذكره في تاريخ آداب الأمم اللاتينية (أسبانيا وفرنسا وإيطاليا) مما نرجو أن نعرض له في فصل خاص إن شاء الله

فكيف لا يستجيب شعراؤنا اليوم لما يدعوى حولهم من موسيقا هذا الوجود ؟

إننا نقرأ شيكسبير ونعجب به ، ونشيد بذكري ملتون ونكسب على فردوسه ، ونتلو آثار الشعراء الفرنسيين والألمان والإيطاليين والأسبان ، التي أنشئت بالشعر المرسل في الملاحم والدمج ، ثم نحن تسحرنا هذه الأشعار بسهولة وسرعتها وموسيقاها الرائعة التي استغنت عن القافية واستعاضت منها بالنغم الحلو ، والديباجة الناعمة المشرقة ، والأسلوب الذي لا ينزل ولا يصف ، ولا يلتوى ولا يتعذلق ، فلماذا يا ترى لا نستجيب في شعرنا لهذه الأصداء الأوربية الرائعة كما استجاب العرب الأندلسيون ؟ قد يقول قائل : لقد مضى زمن الملاحم ، فبالآداب العربي وما بالشعر العربي حاجة إليها ، أما الدراما المنظومة فقد فشل التمثيل في مصر باللغة العربية ، فهل يحيا بالشعر ؟

قيل هذا الكلام في بعض المجالس التي دار فيها الحديث عن تلك الدعوة لتجديد الأدب العربي والدعوة إلى تجديد الشعر العربي كذلك ، والذين سمعت هذا الكلام منهم أدباء متصلون بشيوخ الشعراء المصريين الذين عينا عليهم في غير كلمة جودهم وعدم ثورتهم على القديم وتمسكهم بأهداب الماضي السحيق الموغل في القدم ، لأنه يرتد إلى أكثر من ألفي سنة

منطق عجيب إن دل على شيء فهو إنما يدل على تجاهل لا جهل ، وإصرار على الجلود دون محاولة بذل أي جهد نحو التجديد

لقد مضى زمن الملاحم ... هكذا يقول شيوخ الأدباء في مصر . وعلى هذا فقد قضى على اللغة العربية وعلى الأدب العربي ، وعلى المتأدين العرب ألا تكون لهم ملحمة ما ، كالإلياذة والأوديسة لهوميروس ، والإينباتة لفرجيل ،

والكوميديا الإلهية لدانتى ، والشاهنامة للفردوسي ، والفردوس ، المفقود للبتون ... بل قضى على الأدب العربي ، وعلى الشعر العربي ، وعلى المتأدين العرب ألا يكون لهم قصص طويل منظوم رائع مثل فينوس وأدونيس والكريس لشيكسبير وسوردلو Sordello ، وباراسلوس والحاتم والكتاب لروبرت برونج ، وتشيلد هارولد ودون جوان لبيرون ، وأدونيس وثورة الإسلام والملسكة مابلسلي ، والقرية المهجورة لجولدسميث ، وسمراب ورستم لأرنولد ، وملاحم تينسون الموسيقية البارعة ، وأنديميون ولاميا وإيزابلا . هذه الملاحم أو ال Romances الشعرية الرائعة التي كان يخلق بشعراؤنا أن يتعلموا منها كيف يقرضون الشعر ، وهي مع هذا من نظم كينس الشاب الذي لم يعد الثالثة والعشرين ! . أما أن زمن الدراما المنظومة قد مضى ، وأن التمثيل باللغة العربية الفصحى قد فشل في مصر ، فهو كلام لا يقوله قوم يؤمنون بنهضة أو يوقنون بإصلاح . وسنترك إنجلترا وفرنسا وألمانيا في الرد على هؤلاء اليائسين المتشائمين ونتجه بهم نحو مصر نفسها ، فنذكرهم بالفرق الإنجليزية والفرق الفرنسية التي كانت تزورنا منذ عامين لا أكثر لتمثل لنا درامات شيكسبير وموليير وغيرهما من مسرحيي الإنجليز والفرنسيين . ثم نذكرهم في الوقت الحاضر بكواكب هوليود ونجومها الذين - واللائي - يزورون مصر الآن للترفيه عن جنود الحلفاء في الشرق الأدنى والأوسط ، وقد سمعت منهم - عن طريق الإذاعة - أكثر من خمسين أوبريت و Ballad وعشرات من المشاهد المختارة من أبدع ما أنشأ شعراء الشعر المرسل

لمت أدري لماذا يستمر الإنجليز في تمثيل درامات شيكسبير ودریدن وبيرو ما دام أن زمن الدراما المنظومة قد مضى في نظر شعرائنا الشيوخ الأفاضل ؟

على أنه إن كان زمن الدراما المنظومة قد مضى فإذا صنع شعراؤنا الأفاضل في زمن الدراما المنشورة ؟ لقد دعوتهم إلى مد المسرح والسيف بالدرامات الرفيعة التي نحن أحوج إليها من ألف ألف مقالة أو قصيدة أو مقطوعة مما يكتبون وينظمون ، فهل فعلوا ... هل فكروا ؟ ... لقد دعوتهم إلى أن يفكروا للمصر الحديث بمقول حديثة ، كما ندعوم اليوم لكي ينظموا للمصر الحديث على غير طريقة المهليل منذ ألفين من السنين ، فهل استجابوا لصوت العصر الجديد ؟ لقد شكونا إليهم عدم